

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تأليف الشيخ الرحلة المحدث المفنن فريد عصره ووحيد دهره
شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي

الشافعي

تغمده الله برحمته وغفرانه

وما توفيقني إلا بالله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال، وبكرمه وجوده تدرك
الآمال، وعلى وفق مشيئته تتصرف الأفعال، وبارادته تتغير الأحوال، وإليه
المصير والمرجع والمآل، سبحانه هو الباقي بلازوال، المنزه عن الحلول
والانتقال، (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)^(١)، ذو العرش والمعارج
والطول والاكرام والجلال، نحمده على ما أسبغ من الانعام والافضال،
ومن به من الاحسان والنوال، حمداً لاتوازيه الجبال، ملء السموات
والأرض وعلى كل حال، ونصلي على رسوله ونبيه، وخيرته من خلقه

وصفيه، وخليله ووليه، وحببيه المفضل، سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ، والفضل الشامخ، والعلم الراسخ، والجمال والكمال، صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، وعترتهم الطيبين، ما أفل كوكب وطلع هلال، وعلى آل محمد وصحبه خير صحب وأكرم آل، وعلى تابعيهم باحسان وجميع الأولياء والأبدال، وعفا عن المقصرين من أمته أولي الكسل والملال، وحشرنا في زمرة، متمسكين بشريعته، مقتدين بسنته، متعظين بما ضرب من الأمثال، مزدحمين تحت لوائه، في جملة أوليائه (يوم لا بيع فيه ولا خلال).^(٢)

أما بعد: فإنه بعد أن صرفت جل عمري، ومعظم فكري، في اقتباس الفوائد الشرعية، واقتناص الفرائد الأدبية، عن لي أن أصرف إلى علم التاريخ بعضه، فأحوز بذلك سنة العلم وفرضه، اقتداء بسيرة من مضى، من كل عالم مرتضى، فقل إمام من الأئمة إلا ويحكي عنه من أخبار من سلف فوائده، منهم إمامنا أبو عبد الله الشافعي رضي الله عنه، قال مصعب الزبيري: ما رأيت أحداً أعلم بأيام الناس من الشافعي، ويروي عنه أنه أقام على تعلم أيام الناس والأدب عشرين سنة، وقال: ما أردت بذلك الاستعانة على الفقه.

قلت: وذلك عظيم الفائدة، جليل العائدة، وفي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أخبار الأمم السالفة، وأنباء القرون الخالفة، ما فيه عبر لذوي البصائر، واستعداد لـ (يوم تبلى السرائر)^(٣)، قال الله عز وجل وهو أصدق القائلين: (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين)^(٤) وقال: سبحانه وتعالى: (ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر، حكمة بالغة فما تغن النذر)^(٥) وحدث النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أم ذرع^(٦) وغيره مما جرى في الجاهلية، والأيام الاسرائيلية، وحكى عجائب ما رآه ليلة أسري به وعرج، وقال: «حدثوا عن بني اسرائيل ولا

«حرج»^(٧) وفي صحيح مسلم عن سواك بن حرب «قال: قلت لجابر بن سمرة أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم كثيرا، كان لا يقوم من مصلاه الذي صلى فيه الصبح والغداة حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام وكانوا يتحدثون، فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم»^(٨) وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بني إسرائيل حتى نصبح ما يقوم الا الى عظم صلاة»^(٩)

قلت: ولم يزل الصحابة والتابعون فمن بعدهم يتفاوضون في حديث من مضى، ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى، ويستنشدون الأشعار، ويتطلبون الآثار والأخبار، وذلك بين من أفعالهم، لمن اطلع على أحوالهم، وهم السادة القدوة، فلنا بهم أسوة، فاعتنيت بذلك وتصفحته، وبحث عنه مدة وتطلبت، فوقفت والحمد لله على جملة كبيرة من أحوال المتقدمين والمتأخرين، من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، والخلفاء والسلاطين، والفقهاء والمحدثين، والأولياء والصالحين، والشعراء والنحويين، وأصناف الخلق الباقين، ورأيت أن المطلع على أخبار المتقدمين، كأنه قد عاصرهم أجمعين، وأنه عندما يفكر في أحوالهم ويذكرهم، كأنه كان مشاهدهم ومحاضرهم، فهو قائم له مقام طول الحياة، وإن كان متعجل الوفاة.

قال نعيم بن حماد: كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وفي رواية قال: قيل لابن المبارك: يا أبا عبد الرحمن تكثر القعود في البيت وحدك؟ فقال: أنا وحدي، أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، يعني النظر في الحديث. وفي رواية أخرى: وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

قلت: وقد أنشدت لبعض الفضلاء:
كتاب اطالعهم مؤنس
أحب إلي من الأنسة
وأدرسه فيريني القرو
ن حضورا وأعظمهم دارسه

وقد اختار الله سبحانه لنا أن نكون آخر الأمم، وأطلعنا على أنباء من تقدم لتتعظ بما جرى على القرون الخالية، وتعيها أذن واعيه، (فهل ترى لهم من باقيه) (١٠) ولنقتدي بمن تقدمنا من الأنبياء، والائمة الصلحاء، ونرجو بتوفيق الله عز وجل أن نجتمع بمن يدخل الجنة منهم، ونذاكرهم بما نقل إلينا عنهم، وذلك على رغم أنف من عدم الادب، ولم يكن له في هذا العلم أرب، بل أقام على غيه وأكب، والمرء مع من أحب *

هذا وإن الجاهل بعلم التاريخ راكب ظهر عمياء، خابط خبط عشواء، ينسب إلى من تقدم أخبار من تأخر، ويعكس ذلك ولا يتدبر، وإن رد عليه وهمه لا يتأثر، وإن ذكر فلجهله لا يتذكر، لا يفرق بين صحابي وتابعي، وحنفي ومالكي وشافعي، ولا بين خليفة وأمير، وسلطان ووزير، ولا يعرف من سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم أكثر من أنه نبي مرسل، فكيف له بمعرفة أصحابه وذلك الصدر الأول، الذين بذكرهم ترتاح النفوس، ويذهب البؤس *

ولقد رأيت مجلسا، جمع فيه ثلاثة عشر مدرسا، وفيهم قاضي قضاة ذلك الزمان، وغيره من الأعيان، فجرى بينهم وأنا أسمع ذكر من تحرم عليه الصدقة، وهم ذوو القربى المذكورون في القرآن، فقال: جميعهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وعدلوا بأجمعهم في ذلك عما يجب، فتعجبت من جهلهم حيث لم يفرقوا بين عبد المطلب والمطلب، ولم يهتدوا إلى أن المطلب هو عم عبد المطلب، وأن عبد المطلب هو ابن هاشم، فما أحقهم بلوم كل لائم، إذ هذا أصل من أصول الشريعة قد أهملوه، وباب من

أبواب العلم جهلوه، ولزم من قولهم إخراج بني المطلب من هذه الفضيلة، فابتغيت إلى الله تعالى الوسيلة، وأنفت لنفسي من ذلك المقام، فأخذت بعلم أخبار الأنام، وتصحيح نسبتها، وإيضاح محبتها، فإن كثيراً ممن يحفظ شيئاً من الوقائع يفوته معرفة نسبتها إلى أربابها، وإن نسبها خلط فيها وصرفها عن أصحابها، وهو باب واسع غزير الفوائد، صعب المصادر والموارد، زلت فيه قدم كثير من نقلة الأخبار، ورواة الآثار.

ثم أردت أن أجمع من هذا العلم كتاباً يكون حاوياً لما حصلته، وأتقن فيه ما خبرته، فعمدت إلى أكبر كتاب وضع في هذا الفن على طريقة المحدثين، وهو تاريخ مدينة دمشق، حماها الله عز وجل، الذي صنفه الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن العساكري رحمه الله، وهو ثمانمائة جزء في ثمانين مجلداً فاختصرته وهذبتة^(١١) وزدته فوائده من كتب آخر جليلة وأتقنته، ووقف عليه العلماء، وسمعه الشيوخ والفضلاء.

ومرّبي فيه من الملوك المتأخرين، ترجمة الملك العادل نور الدين، فأطربني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه، وتغير خلانه، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين فوجدتها في المتأخرين، كالعمرين رضي الله عنهما في المتقدمين، فإن كل ثان من الفريقين حداً حذو من تقدمه في العدل والجهاد، واجتهد في اعزاز دين الله أي اجتهاد، وهما ملكا بلدتنا، وسلطانا خطتنا، خصنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما، فعزمت على أفراد ذكر دولتيهما بتصنيف، يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعله يقف عليه من الملوك، من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا يبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين، وذكرى منه سبحانه (فإن الذكرى تنفع المؤمنين)^(١٢) فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين، ومن حداً حذوهم من

الأئمة السابقين، ويقولون: نحن في الزمن الأخير، وما لأؤلئك من نظير، فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم، من بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبيه بهما أحد، إن وفق الله الكريم وسدد، وأخذت ذلك من قول أبي صالح شعيب بن حرب المدائني رحمه الله، وكان أحد السادة الاكابر في الحفظ والدين، قال: إني لأحسب يجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من الله على هذا الخلق، يقال لهم إن لم تدركوا نبيكم فقد رأيتم سفيان ألا اقتديتم به، وهكذا أقول: هذان الملكان حجة على المتأخرين، من الملوك والسلاطين، فلله درهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة، وجميل السريرة، وهما حنفي وشافعي، شفى الله بهما كل عي، وظهرت بهما من خالقهما العناية، فتقاربا حتى في العمر ومدّة الولاية، وهذه نكتة قل من تظن لها ونبه عليها، ولطيفة هداني الله بتوفيقه إليها، وذلك أن نور الدين رحمه الله ولد سنة احدى عشرة وخمسةائة، وتوفي سنة تسع وستين، وولد صلاح الدين رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وخمسةائة، وتوفي سنة تسع وثمانين^(١٣)، فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنة واحدة وبعض أخرى، وكلاهما لم يستكمل ستين سنة، فانظر كيف اتفق أن بين وفاتيهما عشرين سنة وبين مولديهما إحدى وعشرين سنة وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين، وملكها صلاح الدين سنة سبعين، فبقيت دمشق في المملكة النورية عشرين سنة، وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة سنة، ثم حى فيها السيئة وتكتب الحسنة، وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدّة الولاية ببلدة معينة للملكين متعاقبين مع قرب الشبه بينهما في سيرتهما، والفضل للمتقدم، فكانت زيادة مدة نور الدين كالتشبيه على زيادة فضله، والارشاد إلى عظم محله، فإنه أصل ذلك الخير كله، مهد الأمور بعدله وجهاده، وهيبته في جميع بلاده مع شدة الفتق، واتساع الخرق، وفتح من البلاد، ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على من بعده على الحقيقة، سلوك تلك الطريقة، لكن صلاح الدين أكثر

جهاداً، وأعم بلاداً، صبر وصابر، ورابط وثابر، وذخر الله له من الفتوح
أنفسه، وهو فتح الأرض المقدسة، فرضي الله عنها فما أحقها بقول
الشاعر:

كـم تـرك الأـول لـلأخـر
وألـبس اللـه هـاتـيك العـظام وإن
بـلـين الثـرى عـفـواً وعـفـرانا
سـقى ثـرى أودعـوه رـحمة مـلأت
مـشوى قـبورهم رـوحاً ورـيحانا

وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما جماعة من العلماء، والأكابر
الفضلاء، فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي في
تاريخه ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، ولأجله تم
ذلك الكتاب وذكر اسمه في خطبته، وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد
التميمي في مذييل التاريخ الدمشقي قطعة سالحة من أوائل الدولة
النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسة، وصنف الشيخ الفاضل عز الدين
أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري، عرف بابن الأثير مجلدة
في الأيام الأتابكية، كلها وما جرى فيها وفيه شيء من أخبار الدولة
الصلاحية لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى، لكونها متفرعة عنها، وصنف
القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلية، عرف
بابن شداد، قاضي حلب مجلدة في الأيام الصلاحية، وساق ما تيسر فيها
من الفتوح، واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه الله
تعالى، وصنف الإمام العالم عماد الدين الكاتب، أبو حامد محمد بن محمد
ابن حامد الأصفهاني كتابين كلاهما مسجوع متقن بالألفاظ الفصيحة
والمعاني الصحيحة، أحدهما الفتح القدسي اقتصر فيه على فتوح صلاح
الدين وسيرته، فاستفتح به سنة ثلاث وثمانين وخمسة، والثاني البرق
الشامي ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرها مما
وقع من سنة وروده دمشق وهي سنة اثنتين وخمسين وخمسة إلى وفاة

صلاح الدين، وهي سنة تسع وثمانين، فاشتمل على قطعة كبيرة من أواخر أخبار الدولة النورية، إلا أن العماد في كتابه طويل النفس في السجع والوصف يمل الناظر فيه، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه، فحذفت تلك الاسجاع إلا قليلا منها استحسنتها في مواضعها، ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع نحو ما استراه من أخبار فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى، وانتزعت المقصود من الأخبار من بين تلك الرسائل الطوال والاسجاع المفضية إلى الملال، وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام، واخترت من تلك الأشعار الكثيرة قليلا مما يتعلق بالقصص وشرح الحال، وما فيه من نكتة غريبة وفائدة لطيفة، ووقفت على مجلدات من الرسائل الفاضلية، وعلى جملة من الأشعار العمادية، مما ذكره في ديوانه دون دقة من كتب أخرى من دواوين وغيرها، فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين أو بإحديهما، وما حدث في مدتيهما من وفاة خليفة أو وزير، أو أمير كبير، أو ذي قدر خطير، وغير ذلك، فجاء مجموعاً لطيفاً، وكتاباً ظريفاً، يصلح لمطالعة الملوك والأكابر، من ذوي المآثر والمفاخر، وسميته كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ولله در حبيب بن أوس حيث يقول:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام (١٤)

فصل

أما الدولة النورية فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود ابن عماد الدين أتابك، وهو أبو سعيد زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي، ويلقب زنكي أيضا بلقب والده قسيم الدولة، ويقال لنور الدين ابن القسيم، وستكلم على أخبار اسلافه عند بسط أوصافه، وقدّمت من إجمال أحواله ما يستدل به على أفعاله، ذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسة، وأن جدّه آق سنقر ولي حلب وغيرها

من بلاد الشام، ونشأ أبوه زنكي بالعراق ثم ولي ديار الموصل والبلاد الشامية، وظهرت كفايته في مقابلة العدو عند نزوله على شيزر، حتى رجع خائباً، وفتح الرها والمعرة وكفر طاب وغيرهما من الحصون الشامية، واستنقذها من أيدي الكفار، فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسة، ثم قصد نور الدين حلب فملكها، وخرج غازيا في أعمال تل باشر، فافتتح حصونا كثيرة من جملتها قلعة عزاز ومرعش وتل خالد، وكسر ابرنس أنطاكية وقتله وثلاثة آلاف أفرنجي معه، وأظهر بحلب السنة وغير البدعة التي كانت لهم في التأذين، وجمع بها الرافضة وبنى بها المدارس، ووقف الأوقاف، وأظهر العدل، وحاصر دمشق مرتين، وفتحها في الثالثة، فضبط أمورها، وحصن سورها، وبنى بها المدارس والمساجد وأصلح طرقها، ووسع أسواقها، ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها، وعاقب على شرب الخمر، واستنقذ من العدو ثغر باناس، والمنيطرة وغيرها .

وكان في الحرب ثابت القدم وحسن الرمي، صليب الضرب يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل الله تعالى أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير، ووقف رحمه الله وقوفا على المرضى ومعلمي الخط والقرآن، وساكني الحرمين، وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج، وأمر باكمال سور المدينة واستخراج العين التي بأحد، وبنى الربط والجسور والخانات، وجدّد كثيرا من قنى السبيل، وكذا صنع في غير دمشق من البلاد التي ملكها، ووقف كتبا كثيرة، وحصل في أسره جماعة من أمراء الفرنج، وكسر الروم والفرنج على حارم، وكان عدتهم ثلاثين ألفا، ثم فتح حارم، وأخذ أكثر قرى أنطاكية، ثم فتح الديار المصرية، وكان العدو قد أشرف على أخذها، ثم أظهر بها السنة وانقمت البدعة، وكان حسن الخط، كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعا للآثار النبوية، مواظبا على الصلوات في الجماعات عاكفاً على تلاوة القرآن،

حريصا على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الانفاق، متحرياً في المطاعم والملابس، لم يسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره، وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو ارشاد إلى سنة يتبعها.

وقال أبو الحسن بن الأثير: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والانصاف منه، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه، وإنعام يسديه، ونحن نذكر ما يعلم به محله في أمر دنياه وأخراه، فلو كان في أمة لا فتخرت به، فكيف ببيت واحد.

أما زهده وعبادته وعلمه، فإنه كان مع سعة ملكه، وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحله، ولم يتعده إلى غيره ألبته، ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة، ومنع من شرب الخمر، وبيعها في جميع بلاده، ومن إدخالها إلى بلد ما، وكان يحد شاربها الحد الشرعي، كل الناس عنده فيه سواء.

حدثني صديق لنا في دمشق، كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين ووزيرها قال: كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته لا تقدم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها وينفرد هو تارة يطالع رقع أصحاب الأشغال، أو في مطالعة كتاب أتاه، ويحجب عنها، وكان يصلي فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار فإذا جاء الليل وصلى العشاء

ونام يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة فيظهر الركوب، ويشغل بمهام الدولة *

قال: وإنما قلت عليها النفقة، ولم يكفها ما كان قرره لها فأرسلتني إليه اطلب منه زيادة في وظيفتها، فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه، ثم قال: من أين أعطيها أما يكفيها مالها، والله لأخوض نار جهنم في هواها إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال لي، فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق إن كان من عدو الاسلام وأنا خازنهم عليها، فلا أخونهم فيها *

ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها إياها فلتأخذها، قال: وكان يحصل منها قدر قليل *

قال ابن الأثير: وكان رحمه الله لا يفعل فعلا إلا بنية حسنة، كان بالجزيرة رجل من الرجال الصالحين كثير العبادة والورع شديد الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله، ويعتقد فيه اعتقادا حسناً فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة، فكتب إليه يقول: ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية، فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول: والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، وإنما نحن في ثغر العدو قريب منا، وبيننا نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهاراً شتاء وصيفا إذ لا بد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لا قدرة لها على ادمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة *

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظر، الذي يقل في

أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله، فإن من يجيء إلى اللعب يفعل بنية صالحة، حتى يصير من أعظم العبادات، وأكبر القربات يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة، وهذه أفعال العلماء الصالحين العالمين *

و حكى لي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة، فلم يحضرها عنده، فوصفت له، فلم يلتفت إليها، وبيناهم معه في حديثها وإذا قد جاءه رجل صوفي، فأمر بها له فقيل له: إنها لا تصلح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها كان أنفع له، فقال: أعطوها له فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة، فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستائة دينار أميرى أو سبعمائة دينار *

قلت: قرأت في حاشية هذا المكان من كتاب ابن الاثير بخط ابن المعطى إيها قال: أعطها لشيخ الصوفية عماد الدين أبي الفتح بن حموية بغير طلب ولا رغبة، فبعثها إلى همدان فبيعت بألف دينار *

قال ابن الاثير وحكى لنا الامير بهاء الدين علي بن السكري، وكان خصيصا بخدمة نور الدين، قد صحبه من الصبا وأنس به، وله معه انبساط، قال: كنت معه يوماً في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا، فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا، فأجرى فرسه، وهو يلتفت وراءه وقال لي: أتدري لأي شيء أجرى فرسي وألتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا، تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها *

قلت: رضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا، وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى:

مثل الرزق الذي تطلبه

مثل الظل الذي يمشي معك

أنت لا تدركه متبعاً
فإذا وليت عنه تبعك

قال ابن الاثير: وكان - يعني نور الدين رحمه الله - يصلي كثيراً من الليل، ويدعو ويستغفر، ويقرأ ولا يزال كذلك إلى أن يركب جمع الشجاعة والخشوع ما أحسن المحراب في المحراب

قال: وكان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه^(١٥)، ليس عنده تعصب بل الانصاف سجيته في كل شيء، وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر، وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف، وترك المحرمات من المأكّل والمشرب والملبس، وغير ذلك فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية، همّة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا حتى جاء الله بدولته، فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم واستحبوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه، ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة *

قال: فإن قال قائل: كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة، فليذكر نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، مع ملكه، وهو سيد الزاهدين في زمانه، ونبينا صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضر موت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى العراق، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين *

قال: وإنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد عنها^(١٦)

قال: وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرة، وأعدلهم حكماً، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عسراً بل أطلقها رحمه الله

جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها، والموصل وأعمالها، وديار مصر وغيرها مما حكم عليه، وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، وهذا لم تتسع له نفس غيره، وكان يتحرى العدل، وينصف المظلوم من الظالم، كائناً من كان، والقوي والضعيف عنده في الحق سواء، وكان يسمع شكوى المظلوم، ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم سار ذكره في شرق الأرض وغربها.

قال: ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول: نحن سخر لها نمضي أوامرها، فمن اتباعه أحكامها أنه كان يلعب بدمشق بالكرة، فرأى انساناً يحدث آخر ويومي بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فقال: لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني، فعاد إليه ولم يتجاسر أن يعرفه ما قال ذلك الرجل، وعاد يكتمه، فلم يقبل منه غير الحق، فذكر له قوله فألقى الجوكان من يده، وخرج من الميدان وسار إلى القاضي وهو حينئذ كمال الدين بن الشهرزوري، وأرسل إلى القاضي يقول له: إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري، فلما حضر ساوى خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولن حضر: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا، فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه، وهو له دوني وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي، وإنما حضرت معه لثلاث يظن أنني ظلمته، فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له.

قال ابن الاثير: وهذا غاية العدل والانصاف، بل غاية الاحسان، وهي درجة وراء العدل، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق الواقفة معه.

قلت: وهذا مستكثر من ملك متأخر، بعد فساد الأزمنة، وتفرّق الكلمة، وإلا فقد انقاد إلى المضي إلى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر، وعلي رضي الله عنهما، ثم حكى نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور، وقد نقلنا ذلك كله في التاريخ الكبير، وفيه عن عبد الله بن طاهر قريب من هذا، لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمض إليه، وقد بلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى استدعي مرة أخرى بحلب إلى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه، فدخل حاجبه عليه متعجباً وأعلمه أن رسول الحاكم بالباب، فأنكر عليه تعجبه، وقام رحمه الله مسرعاً ووجد في أثناء طريقه ما منعه من العبور من حفر جب بعض الحشوس واستخراج ما فيه، فوكل من ثم وكيلاً وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل، ورجع.

قال ابن الاثير: ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الاعصار على الظنة والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدد، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته، مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة، والأخذ بالظنة، وأمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل، واتباع الشرع المطهر.

قال: وحكى لي من أتق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال، فرأى فيها مالاً أنكره، فسأل عنه، فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله، وهو من جهة كذا، فقال: إن هذا المال ليس لنا، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه، فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين، فردّه إلى الخزانة، وقال: إذا سأل الملك العادل عنه، فقولوا له عني: إنه له، فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب، وقال: ألم أقل لكم يعاد هذا المال إلى أصحابه؟ فذكروا له قول كمال الدين: فردّه إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين: أنت تقدر على

حمل هذا المال، وأما أنا فرفقتي دقيقة لا أطيق حملة، والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى، يعاد قولاً واحداً.

قال: ومن عدله أيضاً بعد موته، وهو من أعجب ما يحكى، أن انساناً كان بدمشق غربياً استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله، فلما توفي تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه فلم ينصف فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبيكي، وقد شق ثوبه، وهو يقول: يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا أين عدلك، وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يحصى، وكلهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر إلى صلاح الدين فقبل له: احفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك، فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه، وطيب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشد من الأول، فقال له صلاح الدين: لم تبكي؟ قال: أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته، فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكلما ترى فينا من العدل فمنه تعلمناه.

قلت: ومن عدله أنه بنى دار العدل، قال ابن الأثير: كان نور الدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف وسماها دار العدل، وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراً، وفيهم أسد الدين شيركوه، وهو أكبر أمير معه، وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك في الملك، واقتنوا الاملاك فأكثروا، وتعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها، فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين فأنصف بعضهم من بعض، ولم يقدم على الانصاف من أسد الدين شيركوه، فأنبى الحال إلى نور الدين فأمر حينئذ ببناء دار العدل، فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا إن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين، ووالله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبته، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي، فقالوا له:

إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب، فقال: خروج أملاكي من يدي أسهل علي من أن يراني نور الدين بعين أي ظالم، أو يساوي بيني وبين أحاد العامة في الحكومة، فخرج أصحابه من عنده، وفعلوا ما أمرهم وأرضوا خصماءهم، وأشهدوا عليهم، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات، وكان يجلس في الاسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء وبقي كذلك مدة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، فقال نور الدين لكمال الدين: ما أرى أحدا يشكو من شريكوه، فعرفه الحال، فسجد شكراً لله تعالى، وقال الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

قال ابن الاثير: فانظر إلى المعدلة ما أحسنها، وإلى هذه الهيبة ما أعظمها، وإلى هذه السياسة ما أسدها. هذا مع أنه كان لا يريق دماً ولا يبالغ في عقوبة، وإنما كان يفعل هذا صدقه في عدله وحسن نيته.

قال: وأما شجاعته وحسن رأيه، فقد كانت النهاية إليه فيها فإنه أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأياً، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك.

سمعت جمعاً كثيراً من الناس، لأحصيهم يقولون: إنهم لم يروا على ظهر فرس أحسن منه كأنها خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل، وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها، لم ير جوكانه يعلو على رأسه، وكان ربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، وكانت يده لا ترى والجوكان فيها بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب، وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين وباشر القتال بنفسه، وكان يقول طالما تعرّضت للشهادة فلم أدركها، سمعه يوماً الامام قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك: فقال له: بالله لا تخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فإنك

عمادهم، ولئن أصبت والعياذ بالله في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذته السيف، وأخذت البلاد، فقال: ياقطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا، قبلي من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله الذي لا اله الا هو.

قال: وكان رحمه الله يكثير أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج، خذهم الله تعالى، وأكثر ما ملكه من بلادهم به، ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن، صاحب الدروب، فإنه مازال يخدمه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً، وكان يقاتل به الا فرنج، وكان يقول: إنما حملني على استماتته أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة، وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الاقطاع على سبيل التأليف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا، وساعدنا على الفرنج.

قال: وحيث توفي نور الدين رحمه الله، وسلك غيره غير هذا الطريق، ملك المتولي الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد الاسلام وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقهه.

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده، فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداً أقر الاقطاع عليه، فإن كان الولد كبيراً استبد بنفسه، وإن كان صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر، فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب، وكان أيضاً يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه، وسلاحهم خوفاً من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحملة على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد، ويقول نحن كل وقت في

النفير فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد، دخل الوهن على الإسلام.

قال: ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال: وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ما خافه عيانا.

قال: وأما فعله في بلاد الاسلام من المصالح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم، من ذلك انه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها: حلب وحماه، وحمص، ودمشق، وبارين، وشيزر ومنبج، وغيرها من القلاع والحصون وحصنها وأحكم بناءها، وأخرج عليها من الأموال ما لا تسمح به النفوس، وبنى أيضا المدارس بحلب وحماه ودمشق وغيرها للشافعية والحنفية، وبنى الجوامع في جميع البلاد، فجامعه في الموصل اليه النهاية في الحسن والاتقان، ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوّض أمر عمارته والخروج عليه إلى الشيخ عمر الملاء رحمه الله، وهو رجل من الصالحين فقيل له: إن هذا لا يصلح لمثل هذا العمل، فقال: إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب أعلم أنه يظلم في بعض الاوقات ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإذا ظلم كان الاثم عليه لا علي. قال: وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم، وبنى أيضا بمدينة حماه جامعاً على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها، وجدّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم إما بزلزلة أو غيرها، وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن اعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج جدا، بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب بل على كافة المسلمين من غني وفقير.

قلت: وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعراً بذلك، وإنما هذا كلام مشاع على السنة العامة لنفع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء

للفقراء فيه، والله المستعان، وإنما صرح بأن ما يعز وجوده من الأدوية الكبار وغيرها، لا يمنع منه من احتاج إليه، من الأغنياء والفقراء، فخص ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، لاسيما وقد صرح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفا لمرضه أعطي، والله أعلم.

وبلغني في أصل بنائه نادرة وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكابر ملوك الفرنج، خذلهم الله تعالى فقطع على نفسه في فدائه مالا عظيما، فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم اطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعد ما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلا لئلا يعلم أصحابه، وتسلم المال، فلما بلغ الفرنجي مأمته مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه، فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع لهم الحسنتين وهما الفداء وموت ذلك اللعين، فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان، ومنع المال الأمراء، لأنه لم يكن عن ارادتهم كان.

قال ابن الاثير: وبنى أيضا الخانات في الطرق، فأمن الناس، وحفظت أموالهم وبياتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر، وبنى أيضا الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي، فإذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم، واحتاطوا لأنفسهم، فلم يبلغ العدو منهم غرضا، وكان هذا من أطف الفكر، وأكثرها نفعاً.

قال: وبنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وأدّر عليهم الإدارات الصالحة، وكان يحضر مشايخهم عنده ويقربهم ويدنيههم ويسطهم ويتواضع لهم، فإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويعتقه ويجلسه معه على سجادته، ويقبل عليه

بحدِيثه، وكذلك كان أيضا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنظر، فقصدوه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه، وكان أمراءه يحسدونهم على ذلك وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيبا يقول: ومن المعصوم، وإنما الكامل من تعد ذنوبه.

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي، وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والاحسان إليه، فحسده ذلك الأمير فنال منه يوماً عند نور الدين، فقال له: يا هذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها، وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئة هذا إن صححت مع وجود حسنته، على أنني والله لأصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدبني فكف عنه.

قال ابن الاثير: هذا والله هو الاحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بهاء الذهب.

وبنى بدمشق أيضا دار الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة فهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمناه. وبنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة، وبنى أيضا مساجد كثيرة، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن. قال: وهذا فعل لم يسبق إليه، بلغني من عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا، وهو سنة ثمان وستائة، كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها غير ملك صحيح

شرعي ظاهراً وباطناً، فإنه وقف ما انتقل إليه ووزن ثمنه، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه

قال: وأما هيئته ووقاره فإنه النهاية فيها، ولقد كان كما قيل شديداً في غير عنف، رقيقاً في غير ضعف، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده إلى غاية لا مزيد عليها، وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه، ومجد الدين بن الداية وغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياماً إلى أن يأمرهم بالعود، وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه، ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه، وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول: إن هؤلاء لهم في بيت المال حق فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا، وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجلس حلم وحياء لا تؤبن فيه الحرم^(١٧)، وهكذا كان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو لا يتعدى هذا، بلغني أن الحافظ ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللغط وسوء الأدب من الجلوس فيه ما لا حد عليه، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي، وتكرر من صلاح الدين الطلب له، فحضر فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه، فقال: نزهت نفسي عن مجلسك فإنني رأيتك كبعض مجالس السوق، لا يستمع فيه إلى قائل ولا يرد جواب متكلم، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين، فكنا كما قيل كأنها على رؤوسنا الطير، تعلقنا الهبة

والوقار، فإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنه لا يكون منهم ماجرت به عاداتهم إذا حضر الحافظ. قال ابن الاثير: فهكذا كانت أحواله جميعها رحمه الله مضبوطة محفوفة، وأما حفظ أصول الديانات فإنه كان مراعيها لا يهملها، ولا يمكن أحداً من الناس من اظهار ما يخالف الحق، ومتمى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته، وكان يبالي في ذلك ويقول: نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والأذى الحاصل منها قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل.

قال: وحكي أن إنسانا بدمشق يعرف بيوسف بن آدم، كان يظهر الزهد والنسك، وقد كثر اتباعه أظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حميراً وأمر بصفعه، فطيف به في البلد جميعها، ونودي عليه: هذا جزاء من أظهر في الدين البدع، ثم نفاه من دمشق، فقصد حران وأقام بها إلى أن مات. قال: ويسوق الله القصار الاعمار إلى البلاد الوخمة.

قلت: وذكر العماد الكاتب في أول كتابه البرق الشامي أنه قدم دمشق في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسة في دولة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وأخذ في وصفه بكلامه المسجوع فقال: كان ملك بلاد الشام ومالكها، والذي بيده ممالكها، الملك العادل نور الدين، أعف الملوك وأتقاهم، وأثقبهم رأياً وانقاهم، وأعد لهم. وأعبدهم. وأزهدهم. وأجهدهم. وأظهرهم. وأطهرهم. وأقواهم. وأقدرهم. وأصلحهم عملاً. وأنجعهم أملاً. وأرجحهم رأياً. وأوضحهم رأياً^(١٨). وأصدقهم قولاً. وأقصدتهم طولاً. وكان عصره فاضلاً ونصره واصللاً. وحكمه عادلاً. وفضله شاملاً. وزمانه طيباً. وإحسانه صيباً. والقلوب بمهابته ومحبتة ممتلئة. والنفوس بعاطفته وعارفته ممتلية وأوامره ممتثلة. وجدّه منزّه عن الهزل. ونوآبه في أمن العزل. ودولته مأمولة مأمونة. وروضته مصوبة مصونة. والرياسة كاملة. والسياسة شاملة. والزيادة زائدة. والسعادة مساعدة. والعيشة ناضرة.

والشيعة ناصرة. والانصاف صاف. والاسعاف عاف. وأزر الدين قوي. وظماً الاسلام روي، وزند النجح وري. والشرع مشروع. والحكم مسموع. والعدل مولى. والظلم معزول. والتوحيد منصور. والشرك مخذول. وللتقى شروق. وما للفسوق سوق. وهو الذي أعاد رونق الاسلام إلى بلاد الشام. وقد غلب الكفر، وبلغ الضر. فاستفتح معاقلها. واستخلص عقائدها وأشاع بها شعار الشرع في جميع الحل والعقد. والابرام والنقض. والبسط والقبض. والوضع والرفع. وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الاسلام بالشام قطائع. فقطعها وعفى رسومها ومنعها. ونصره الله عليهم مرارا حتى أسر ملوكهم. وبدد سلوكهم. وصان الثغور منهم. وحماها عنهم. وأحيا معالم الدين الدوارس. وبنى للأئمة المدارس. وأنشأ الخانقاهات للصوفية. وكثرها في كل بلد وكثر وقوفها. وقرّر معروفها. وأدنى للوافدين من جني جناحه قطوفها. وأجدد الأسوار والخنادق. وأنمى المرافق. وحوى الحقائق. وأمر في الطرقات ببناء الربط والخانات. فضافت ضيوف الفضائل. وفاضت فيوض الأفاضل. وهو الذي فتح مصر وأعمالها. وأنشأ دولتها ورجالها^(١٩).

ثم ذكر العماد في أثناء حوادث سنة تسع وستين وهي السنة التي توفي فيها نور الدين قال:

وفي هذه السنة أكثر نور الدين من الأوقاف والصدقات، وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثار الآثام، واسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخراج، وما يحصل من قسمه الغلات على قويم المنهاج.

قال: وأمرني بكتب مناشير لجميع أهل البلاد، فكتب أكثر من ألف منشور وحسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر، فزاد على ثلاثين ألف دينار، وكانت عاداته في الصدقة أنه يحضر جماعة من أمثال

البلد من كل محلة ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل
الحاجة، ثم يصرف إليهم
صدقاتهم، وكان له برسم نفقة الخاص في كل شهر من جزية أهل الذمة
مبلغ ألفي قرطيس يصرفها في كسوته ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أجرة
خياطة وجامكية طباخه، ويستفضل منه ما يتصدق به في آخر الشهر،
وأما ما كان يهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم فإنه كان لا يتصرف في
شيء منه لاقليل ولا كثير، بل إذا اجتمع يخرج به إلى مجلس القاضي
ويحصل ثمنه، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة، وتقدم باحصاء ما في
محال دمشق فأناف على مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله، وعين له
وقوفاً. قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كل بلد لطلال
الكتاب، ولم أبلغ إلى أمد، ومشاهدة أبنيته الدالة على خلوص نيته يغني
عن خبرها بالعيان، ويكفي أسوار البلدان عن الربط والمدارس
على اختلاف المذاهب، واختلاف المواهب وفي شرح طوله طول، وعمله
لله مبرور مقبول.

ووظب على عقد مجالس الوعاظ، ونصب الكراسي لهم في القلعة
للانذار والاتعاظ، وأكبرهم الفقيه قطب الدين النيسابوري، وهو
مشغوف بركة أنفاسه، واغتنام كلامه واقتباسه، ووفد من بغداد ابن
الشيخ أبي النجيب الأكبر، فبسط له في كل أسبوع منبر وشاقه وعظه،
وراقه معناه ولفظه، وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد
المؤمن بن شوروه (٢٠) وما أيمن تلك الايام وأبرك تلك الشتوه.

وقال: ولما اسقط نور الدين الجهات المحظورة، والشبه المحذورة، عزل
الشحن، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن، وقال للقاضي كمال الدين
ابن الشهر زوري: انظر أنت ذلك واحمل أمور الناس فيها على الشريعة،
قال: ولم يكن لمال المواريت الحشرية حاصل، ولا لديوانه طائل، فجعل
نور الدين ثلث ما يحصل فيه لكمال الدين الحاكم، فوفره نوابه وكثروه،
وما كان نور الدين يحاسب القاضي على شيء من الوقوف، ويقول أنا قد

قلدته على ان يتصرف بالمعروف، وما فضل من مصارفها وشروط واقفها بأمره بصرفه في بناء الأسوار، وحفظ الثغور. وكانت دولته نافذة الأوامر، منتظمة الأمور.

قلت : وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم، رحمه الله، مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث. فمرّ في أثناء الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج متقلداً سيفاً فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه، وقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقلد السيف، يشير إلى التعجب من عادة الجند، إذ هم على خلاف ذلك لأنهم ير بطونه بأوساطهم، قال: فلما كان من الغد مررنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه معهم ، فخرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلد للسيف، وجميع عسكره كذلك، فرحمة الله على هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الحالة، لما بلغته رجوع بنفسه، ورد جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فما الظن بغير ذلك من السنن، ولقد بلغني أنه أمر باسقاط ألقابه في الدعاء له على المنابر، ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر في منامه أنه يغسل ثيابه، وقص ذلك عليه ففكر ساعة ثم أمره بكتابة اسقاط المكوس، وقال: هذا تفسير منامك، وكان في تهجده يقول: ارحم العشار المكاس، وبعد أن أبطل ذلك استجعل من الناس في حل، وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدوّ الاسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم.

وعلى الجملة كان نور الدين رحمه الله فرداً في زمانه من بين سائر الملوك، ولو لم يكن إلا استماعه للموعظة وانقياده لها وإن اشتملت على ألفاظ، قد أغلظ له فيها.

أرضيت أن تحيى وقلبك دارس
عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه
أبدأ وأنت مبعدم هجور
مهذل نفسك حجة تنجوبها
يوم المعاد لعلك المعذور (٢١)

قلت: ولعل هذه الايات من أقوى الأسباب المحركة للسلطان في إبطال المظالم، والخلاص من تلك المآثم رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه، ووفق من رام الاقتداء به .

ونقلت من خط الصاحب العالم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد ابن هبة الله بن أبي جرادة في كتاب تاريخ حلب الذي صنفه، وسمعت من لفظه أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب، فلما حاصر أبوه قلعة جعبر وقتل عليها قصد حلب وصعد قلعتها وملكها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمسة، وأحسن إلى الرعية وثبت العدل ورفع الجور، وأبطل البدع واشتغل بالغزو وفتح قلاعاً كثيرة من عمل حلب، كانت بيد الفرنج، وحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له منهم: أبو عبد الله بن رفاعة بن عزيز السعدي المصري.

روى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد، وأبي البركات الحسن، وأبي المنصور عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي.

قال: ووقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر بن صغير القيسراني كتبها إلى نور الدين وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور، فنقلت جميع ما فيها من خطيهما، قال: وكان رحمه الله كتب رقعة يطلب من ابن القيسراني أن يكتب له صورة ما يدعى له به

على المنابر حتى لايقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونه عن الكذب، وعن ما هو مخالف لحاله ونسخة الورقة بخط خالد:

أعلى الله قدر المولى في الدارين، وبلغه أماله في نفسه وذريته، وختم له بالخير في العاجلة والآجلة بمنه وجوده وفضله وحمده، وقف المملوك على الرقعة وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله تعالى بأن يرضى عنه، وعن والديه وأن يسهل له السلوك إلى رضاه، والقرب منه والفوز عنده، إنه على كل شيء قدير، وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الاشراف، زاده الله شرفاً، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى: «اللهم اصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتمصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر، ناصر أمير المؤمنين» فان هذا جميعه لايدخله كذب ولازيادة، والرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى. فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ما هذا صورته: مقصودي أن لايكذب على المنبر أنا بخلاف كل ما يقال، أفرح بما لأعمل قلة عقل عظيم. الذي كتب جيد أكتب به نسخ حتى نسيره إلى جميع البلاد، وكتب في آخر الرقعة ثم يبدأ بالدعاء: اللهم أره الحق، اللهم أسعده، اللهم أنصره، اللهم وفقه، من هذا الجنس

قال: وحدثني والدي قال: استدعانا نور الدين أنا وعمك أبو غانم، وشرف الدين بن أبي عصرون إلى الميدان الأول، وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حمص، فلما شهدنا عليه التفت إلينا وقال: بالله انظروا أي شيء عملتموه من أبواب البر والخير دلونا عليه، وأشركونا في الثواب، فقال شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحد من بعده فعل خير إلا وقد سبقه إليه.

وقال: قال لي والدي: دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر

فمات بها وخلف بها ولداً صغيراً ومالاً كثيراً، فكتب بعض من بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات ها هنا رجل تاجر موسر وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين، وحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصغير يرضى منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة، فكتب على رقعة: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فلعه الله (٢٢).

قال: وبلغتني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضاً، وحدثني الحاج عمر بن سنقر عتيق شاذبخت النوري قال: سمعت الطواشي شاذبخت الخادم يحكي لنا قال: كنت يوماً أنا وسنقرجا واقفين على رأس نور الدين، وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكيراً عظيماً، وجعل ينكت بأصبعه في الأرض، فتعجبنا من فكره وقلنا: ترى في أي شيء يفكر في عائلته أو في وفاء دينه، فكأنه فطن بنا، فرفع رأسه وقال: ما تقولان؟ فقلنا: ما قلنا شيئاً، فقال: بحياتي قولاً لي، فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا يفكر في عائلته أو في نفسه، فقال: والله إنني أفكر في وال وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك فبالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام لاتريان قصة ترفع إليّ أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وأرفعها إليّ.

وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قال: كان نور الدين ينفذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئاً يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه، وكان إذا قدم الموصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملاء.

قال: وكان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة

الموصل أن لا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي به، وأن لا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بأمر الشيخ عمر الملاء.

قال: فكان لا يعمل بالسياسة، وبطلت الشحنية في أكابر الدولة، وقالوا لكمشكتكين: قد كثر الذعار وأرباب الفساد، ولا يجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصلب، فلو كتبت إلى نور الدين وقلت له في ذلك، فقال لهم: أنا لا أكتب إليه في هذا المعنى ولا أجسر على ذلك فقولوا للشيخ عمر يكتب إليه، فحضروا عنده وذكروا له ذلك، فكتب إلى نور الدين وقال له: إن الذعار والمفسدين وقطاع الطرق قد كثروا، ويحتاج إلى نوع سياسة فمثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال انسان في البرية من يجيء يشهد له؟ قال: فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره: إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى. قال: فجمع الشيخ عمر الملاء أهل الموصل وأقرأهم الكتاب، وقال انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وسمعت صقر بن يحيى بن صقر المعدل يقول: سمعت مقلداً يعني الدولعي يقول: لما مات الحافظ المرادي وكنا جماعة الفقهاء قسامين: العرب والأكراد، فمننا من مال إلى المذهب، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان بالموصل، ومننا من مال إلى علم النظر والخلاف وأراد أن يستدعي قطب النيسابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدس ثم عاد إلى بلاد العجم، فوقع بيننا كلام بسبب ذلك، ووقعت فتنة بين الفقهاء، فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجد الدين، يعني ابن الداية عن لسانه، وقال لهم: نحن ما أردنا بناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من

هذه البلدة، واطهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق، وقد قال المولى نور الدين: نحن نرضي الطائفتين، ونستدعي شرف الدين ابن أبي عصرون، وقطب الدين النيسابوري فاستدعاهما جميعا، وولى مدرسة ابن أبي عصرون لشرف الدين، ومدرسة النفري^(٢٣) لقطب الدين.

قال: وعلقت أيضا من خط فقيه كان معيدا بالنظامية يقال له أبو الفتح بنجة بن أبي الحسن بن بنجة الاثري، وكان ممن ورد دمشق، وجمع لنور الدين سيرة مختصرة قال: كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العدل للنظر في أمور الرعية، وكشف الظلامة لا يطلب بذلك درهما ولا دينارا أو زيادة ترجع إلى خزائنه، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، وطلبا للثواب والزلفى في الآخرة، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال، ويحضر في جلسة العجوز الضعيفة التي لاتقدر على الوصول إلى خصمها، ولا المكاملة معه فيأمر بمساواته لها، فتغلب خصمها طمعا في عدله، ويعجز الخصم عن دفعها خوفا من عدله، فيظهر الحق عنده فيجري الله تعالى على لسانه ما هو موافق الشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه الا محض الشريعة.

قال: وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم، وأما فكره ففي اظهار شعار الإسلام، وتأسيس قاعدة الدين من بناء المدارس والربط والمساجد حتى أن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقرًا للعلماء والفقهاء والصوفية، لصرف همته إلى بناء المدارس والربط، وترتيب أمورهم والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم، ولو لم يكن من هذه الخصال إلا ما علم

منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، وإذا تحدّث بشيء وقف عليه، ولا يخالف قوله ولا يرجع عن لفظه ومنطقه لكفى، ولا يجري في مجلسه الفسق والفجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم، كما يجري في مجالس سائر الملوك، ولا يطمع في أخذ أموال الناس ولا يرضى بأن يأخذ أحد من أموال الشريعة شيئاً بغير حق.

قال: وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها، بتائم شرائطها، وأركانها وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة، حكاية عن الكفار أنهم يقولون: ابن القسم له مع الله سر، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فالله سبحانه وتعالى يستجيب له دعاءه، ويعطيه سؤاله، وما يردّ يده خائبة، فيظفر علينا، قال: فهذا كلام الكفار في حقه.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين، فقام رجل وادّعى على الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالب بذلك، فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أرد إليك ما يخصني فإني ما ورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة، فقلت في نفسي: هذا هو العدل.

قال: وحضر رجل زاهد فيه سمة الخير معروف بالصلاح والسداد، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البيان، وكان قد أودع عند أخيه أبي

البيان وديعة، وقد توفي فادعى المودع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة، وطالبه بالردّ عليه، فانكر هذا الرجل علمه بالوديعة، فأوجب عليه القاضي كمال الدين حكم الشرع أن يحلف أنه لا علم له بهذه الوديعة، فحلف على ذلك فجعل المودع يشنع عليه ويقول انه حلف كاذباً، ويتكلم في عرضه، ويقول في حقه من التمس وغيره، فحضر عند الملك العادل شاكياً منه وذاكراً سيرته وطريقته، ومن الذي يقدر أن يقول في حقي هذا، ويتعرض بالتماسه من الملك العادل التقدّم باحضاره والانكار عليه فيما يقول في حقه، فلما فرغ من الكلام، ورمى ما كان في جعبته من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الانكار عليه، فقال الملك العادل: أليس إن الله تعالى يقول في كتابه: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً^(٢٤)) فإذا كان يجهل عليك ويقول في حقك بالجهل مالا يجوز، فيجب عليك أن لاتعمل معه مثل معاملته فتكون مثله، فكأنك قابلت الاساءة بالاساءة، ومن حقك أن تقابل الاساءة بالاحسان، فقلت في نفسي: الحق ما قال الملك العادل إما قرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه أو أجراه الله على لسانه وأنطقه به.

قال: وحضر جماعة من التجار وشكوا أن القراطيس كان ستون منها بدينار فصار سبعة وستون بدينار، وتزيد وتنقص فيخسرون، فسأل الملك العادل عن كيفية الحال فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار، ولا يرى الدينار في الوسط، وإنما يعدون القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار، وتارة سبعة وستين بدينار، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدنانير الملكية، وتبطل القراطيس بالكلية، فسكت ساعة وقال: إذا ضربت الدينار وابطلت المعاملة بالقراطيس فكأنني خربت بيوت الرعية، فإن كل واحد من السوقه عنده عشرة آلاف، وعشرون ألف قرطاس أي شيء يعمل به، فيكون سبباً لخراب بيته.

قال: فأبي شفقة تكون أعظم وأكثر من هذا على الرعية.

قال: وحضر صبي وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف، فسأل عن حاله فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرة وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل الملك العادل: كم أجرة السنة؟ فقالوا: مائة وخمسون قرطاساً، وذكروا سيرته وطريقته وفقره، فرق له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك وباخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح، حتى كأن الانعام كان في حقه.

أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب الهاشمي قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكردي قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يدعى سويداً يحضر الخصوم إلى مجلس الحكم، فحضر بعض التجار وأدعى أن له على نور الدين دعوى، فقال الكردي لسويد المذكور: امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرفه أنه حضر شخص يطلب حضوره، وكان نور الدين في الميدان فجاء سويد إلى باب الميدان فخرج اسماعيل الخزندار فوجده، فتقدم سويد إليه وقال: سيرني تاج الدين، يعني القاضي، وذكر أنه حضر تاجر وذكر أن له دعوى على المولى نور الدين، وقد أنفذي تاج الدين وقال لي: كذا وكذا، فضحك اسماعيل الخزندار، ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئاً: يقوم المولى، فقال: إلى أين؟ فقال: حضر سويد غلام تاج الدين الكردي، وقال إن تاج الدين أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على اسماعيل استهزاءه، وقال: تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم، وقال نور الدين: يحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة، قال الله تعالى: (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله

ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا^(٢٥) ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة، فاستدعى سويداً وقال له: امض إلى القاضي تاج الدين وسلم عليه وقل له: إني جئت إلى ها هنا امتثالاً لأمر الشرع، واحتاج في الحضور إلى جلسة إلى سلوك هذه الأزقة وفيها الاطيان وهذا وكيل يسمع الدعوى، وإن توجهت عليّ يمين أحضر إن شاء الله تعالى، قال: فحضر الوكيل وسمع الدعوى، وتوجهت اليمين فقال الكردي: قد توجهت اليمين فليحضر، فلما بلغ نور الدين ذلك وعلم أنه لامندوحة عن حضور مجلسه لليمين، استدعى ذلك التاجر وأصلح الأمر فيما بينه، وأرضاه.

وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين يقول: حكى لي السلطان الملك الناصر صلاح الدين قال: أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد الدين شيركوه، وكان لا يفعل شيئاً إلاّ بمشورته، فقال: امض وقل لأسد الدين: قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس، وخذ رأيه في ذلك، قال: فجئت إليه وأنهيته ما قال لي، فقال: امض وقل له: يامولانا إذا فعلت ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيمهم، وتحتاج إليهم للغزاة، وخروج العساكر؟ قال السلطان صلاح الدين: فقلت لعمي: هذا أمر قد ألهمه الله إياه، فساعده عليه فصاح فيّ وقال: امض إليه، وقل له ما أقول لك.

قال: فعدت إلى نور الدين فأنهيته إليه ما قال عمي، فقال امض إليه وقل له إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولانخرج، قال: فعدت إلى عمي وقلت ما قال، فقال: قل له إن تركوك نقعد فجيدهو، فراجعته في أن لا يثبته عن ذلك، فصاح فيّ وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك، فجئت إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مدة، ثم أمضى ما كان عزم عليه.

قال لي صقر بن يحيى: بلغني أن موفق الدين خالداً رأى في النوم كأن نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقص منامه على نور الدين فتمعر وجه نور الدين، فخجل موفق الدين وبقي أياماً على غاية من الخجل، فاستدعاه يوماً نور الدين، وقال: قد آن لك أن تغسل ثيابي أقعد وأكتب باطلاق المؤن والمكوس والأعشار، واكتب للمسلمين إني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، واثبت عليكم ما أثبتته الله عليكم، قال: فكتب موفق الدين توقيعا.

سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه يقول: سمعت أبي يقول لما كسر نور الدين، يعني كسرة البقية، تكلم البرهان البلخي فقال: اتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمر والطبول والزمر، كلا، وكلاماً مع هذا، فلما سمعه نور الدين قام ونزع عنه ثيابه تلك وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الأفرنج.

سمعت صديقنا شمس الدين اسماعيل بن سود كين بن عبد الله النوري، وكان أبوه أحد مماليك نور الدين، فاعتقه، يقول: سمعت والدي يقول: كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحاً ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل، قال: وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع، ويقول: ارحم العشار المكاس.

قال لي قاضي القضاة بهاء الدين: سير نور الدين إلى بغداد كتاباً يعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ أن يستجعلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل مما كان قد وصل إليه، يعني من أموالهم، فتقدم بذلك، وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك.

حدّثني رضي الدين أبو سالم عبد المنعم بن منذر أن نور الدين حين خرج لأخذ شيزر ، خرج أبو غانم بن منذر صحبته، فأمره نور الدين بكتابة منشور باطلاق المظالم بحلب . ودمشق. وحمص. وحران. وسنجار. والرحبة. وعزاز. وتلّ باشر، وعداد العرب، فكتب عنه توقيعا نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقرّب به إلى الله سبحانه وتعالى صافحا، وأطلقه مساحا لمن علم ضعفه من الرعايا رعاهم الله، لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار أبادهم الله عند إستيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم في العباد، رافة بالمسلمين المثاغر، ولطفاً بالضعفاء المرابطين الذين خصهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمحنهم بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجرا وثواباً، (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (٢٦) وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمرية، وأقرّها في الدولة الاسلامية، بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدّمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاحين، فطمس عنهم بذلك معالم الجور، وهدم أركان التعدي، وأقرّ الحق مقرة لقوله تعالى: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) (٢٧) (والله يضاعف لمن يشاء) (٢٨) ثم لما أعانته الله بعونه وأيده بنصره وجمع به عادية الكفر وأظهر بهمته شعائر الاسلام وأظفروه بالفئة الطاغية، وأمكته من ملوكها الباغية، فجعلهم بين قتيل غير مقاد، وهارب ممنوع الرقاد ، وآخرين مقرنين في الاصفاد، هذا عطاؤنا فامنن أوأمسك بغير حساب، (وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) (٢٩) علم أن الدنيا فانية، فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكه الزائل بأن قدّمه أمامه وجعله ذخراً للمعاد، فالتقوى مادّة دارة إذا انقطعت المواد، وجادّة واضحة حين يلتبس الجواد (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ

لله^(٣٠) فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه، وحرّمها على متناول إليها ومتهافت عليها، تجنبا لإثمها، واكتساباً لشواهبها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه إتباعاً لكتاب الله، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار، جهة ذلك : حلب خمسون ألف دينار، عزاز عن مكس جدّته الفرنج خذلهم الله على المسافرين عشرة آلاف دينار. تلّ باشر أحد وعشرين ألف دينار. المعرّة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة لما استنجد به أهلها واستصرخ من فيها خوفاً على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدو، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل سنة، وهو رسم يسمونه الفيئة عشرون ألف دينار، حمص ستة وعشرين ألف دينار. حرّان خمسة آلاف دينار. سنجار ألف . الرحبة عشرة آلاف دينار. عداد العرب عشرة آلاف دينار. وما وقفه وتصدّق به وأجراه في سبل الخيرات، ووجوه البرّ والصدقات تقدير ثمنه مائتا ألف دينار، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار، من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرسيتها وفقهائها، وما وقفه على دور الصوفية والربط والجسور، والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار، وما وقفه على السبل في طريق الحجاز، وما وقفه على فكاك الأسرى وتعليم الأيتام ومقرّ الغرباء وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين، هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور حرسها الله تعالى من أملاكهم التي تقدم ذكرها، فإنه يضاهاى هذا المبلغ وزيادة عليه، جعل ذلك ذريعة عند الله وتقرباً إليه، مضافاً إلى ما أنفقه في الغزاة والجهاد ، واستئصال شأفة أهل الكفر والعناد، من خزائنه المعمورة، وأمواله الموروثة المذخورة طلباً لما عند الله (والله عنده حسن الثواب)^(٣١) فالواجب على كل إمام عدل وسلطان قادر أن يمده ويؤدّه، ويشدّ عضده، ويقوّى عزمه، وينفذ حكمه، وعلى كل مسلم أن يواصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار.

كتبه خادم دولته، وغذّي نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان ابن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي، غفر الله له ورحمه ورضي عنه، إلى كل من يصل إليه من أئمة الدين، وفقهاء المسلمين، وأصحاب الزوايا المتعبدين وكافة التجار والمسافرين، أحسن الله توفيقهم، وسدّد إلى أغراض الخير توفيقهم، ليشعروا بذلك من حضرهم من التجار والمتردّدين إليهم من السفار، ليعرفوا قدر ما أنعم الله به عليه وعليهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، ويمدّوه بأدعيتهم، ويرثوا ذمّته مما سبق من أخذ مؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلا في خدمة وجه برّ، وتجهيز جيش، ومعونة مجاهد، وردع كافر ومعاند، فهم شركاؤه في الثواب.

قال لي رضي الدين أبو سالم بن المنذر: فلما وقف نور الدين على قوله: ويرى ذمّته مما سبق، استحسن ذلك كثيراً، ووعده باقطاع حسن، واتفق موته بعد ذلك^(٣٢).

قلت: ونقلت من خط الشيخ الأمين أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الخضر بن الحسين بن عبدان الأزدي الدمشقي: وقف المولى نور الدين بستان الميدان سوى الغيضة التي من قبله بعد عمارته واصلاح ما يحتاج إليه على تطيب المساجد التي يأتي ذكرها وهي: جامع دمشق المحروسة، جامع قلعة دمشق، مدرسة الحنفية التي جدّها نور الدين، مسجد ابن عطية داخل باب الجابية، مسجد ابن لبيد بالفسقار، مسجد سوق الرماحين، المسجد المعلق بسوق الصاغة، مسجد دار البطيخ المعلق، مسجد العباسي بسوق الأحد، مسجد نور الدين بجوار بيعة اليهود، جامع الصالحين بجبل قاسيون، يتناح بذلك عود وطيب، ويفرّق على هذه الأماكن: النصف للجامع بدمشق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً: جزآن للمدرسة، وتسعة أجزاء للتسعة المساجد الباقية لكل مسجد جزءاً واحداً، تطيب هذه الأماكن في الأوقات

الشريفة، ومواسم الاجتماعات وليالي شهر رمضان والأعياد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين.

ونقلت من خطه أيضا أن نور الدين رحمه الله حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي والفقهاء : الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد، والإمام عز الدين أبو القاسم علي بن الماسح الشافعيون، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكي، وشرف الإسلام نجم الدين عبد الوهاب الحنبلي، ورضي الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد ابن أسد التميمي، ورئيس دمشق، ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضاء متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق، وهم : عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصائين أبو الحسن، وغيرهم فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفاً عليه، وأن يظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به، ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلا ويذكره، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلا وينكره، والساكت منكم مصدق للناطق، ومصوب لقوله، وليس العمل إلا على ما تتفقون عليه، وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، فكل من الحاضرين شكره على ما قصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء، ثم أمر نور الدين متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقني السبيل، وما يجري مع ذلك أن يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعاً موضعاً ليفرد ما يعلمون أنه للمصالح دون الوقف، فافتتح بالسوق المستجد تحت المأذنة الغربية بجوار البيمارستان، فقال الصائين وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين، وليس من

وقف الجامع لأنه أحدث في طريق المسلمين، وقد صرف في الجامع من أجوره أو في مما غرم على عمارته من وقفه، فصدّقهم الحاضرون على ما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة، ثم عين للمصالح أيضا ما في زيادة الجامع القبليّة، وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشامي من العضائد والحوانيت والحجر التي طباقها وطباق الطريق بحضرتها، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع، والفرن المستجدّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحنوت الخواصين في الصف الغربي، واثنا عشر حانوتا متلاصقات في الصف الشرقي تعرف بالمتعصميات، ونصف حانوت والفرجة المستجدّة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي، وعدتها ثلاثة عشر حانوتا ومصطبة، وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي ملصق الفرجة من شرقها، وحنوت بالفسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفقاعي، وحوانيت اللبادين والتي بحضرة الفوارة وتحت اللبادين، وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحنوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب درب التمارين، وحنوت بقنطرة الشعاعين في الصف الشامي بحضرة البياطرة، وقطعة بجوار المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد، وهي عشرة عضادة وستة أسهم من طاحونة السقيفة، وذلك كله بعضه ميراث عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشترى بهال الوقف والمصالح، وبعضه أخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم، ولم يكن له مال، وبعضه أحدث في الطريق.

قال: فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكر، وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح، قال نور الدين: إن أهم المصالح سدّ ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق، والخندق لصيانة المسلمين وحریمهم وأموالهم، فصوّبوا ما أشار اليه وشكروه، ثم سألهم عن فواضل الاوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين،

فأفتى شرف الدين عبد الوهاب المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روى في مهلة النظر، وقال الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون الشافعي: لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين لجهة إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدّ من ذلك فليس طريقة إلا أن يقترضه من إليه الأمر في بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح، ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك، ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق، وعلى بناء الكلاسة من شام الجامع، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع، وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامي من الجامع وسائر العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا، وهل كان إلا مبلغاً للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا باذني وأنا أمرت به وبفتح المشهدين من غربي الجامع المعمور اللذين كانا مخزينين، وكتب مبلغاً عني ومؤدياً أمري.

قلت: وقد رأيت المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس وهو مشتمل على فوائد حسنة، وتأکید لما نقل من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشرع، وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين، وصورة ما كتبه المالكي المفتي: «حضرت المجلس المذكور، عمره الله وزينه بالعدل أبداً ما عاش صاحبه، وشهدت على ماتضمنه من المشورة المباركة، ومانسب إلى الجماعة من الشهادة بالمواضع المشهورة كما نسب إليهم وقد أخل بذكر دار الحجارة، وقد ذكروها في المصالح المشهورة، ومانسب إليّ من الفتوى، فقد كنت قيدته بالحاجة وفراغ بيت المال أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهماتهم الدينية. كتبه عبد الوهاب بن عيسى بن محمد المالكي».

فصل

وقد مدح نور الدين رحمه الله تعالى بأشعار كثيرة، وأوصافه فوق ما مدح به، وكان في أول دولته شاعرا زمانها أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير، وأبو الحسن أحمد بن منير، ولهما فيه أشعار فائقة ستأتي جملة منها في مواضعها وقد رأيت أن أقدم منها شيئاً هنا.

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني: كتبت إلى نور الدين سلام الله وحنانه، ورأفته وامتنانه، وروحه وربحانه، على من عصم بعزه العواصم، وخصم بحجته الدهر المخاصم، وألجم بهيته العائب والواصم، الذي انتضى في سبيل الله سيوف الجهاد، وارتضى بعز سلطانه شعار العباد والزهاد، واهتدى إلى طاعة الله وليس غير الله من هاد، ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطاً لمملكته، ومعاقل الكفار في عقاب مملكته، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النصر، وممالك الإسلام متوجة بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأزمة القهر، ومن رأى الحكم دارسة، فبنى مدارسها، والهمم يابسة فسقى منابتها ومغارسها، والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها، ومن عمر ربع السنن بعدما عفا، وأنقذ من الفتن من كان منها على شفا، ومن نشر أعلام الفضل، وأنشر بعد الوفاة أيام العدل، ومن أنار بوجهه الإيمان، وأخذ الناس به من الزمان توقيع الأمان: ذوالجهاديين من عدو ونفس

فهو طول الحياة في هيجاء

فهو المالك الذي ألزم الناس

سلوك المحجة البيضاء

قد فضحت الملوكة بالعدل لما

سرت في الناس سيرة الخلفاء

قاسما ما ملكت في الناس حتى

لقسمت التقى على الاتقياء

شيم الصالحين في جتر الترك
وكم من سكينه في قباء
أنت حين اتقاس بالاسد الورد
وحيث اتعد من الأولياء
صاغك الله من صميم المعالي
حيث لانسبه سوي الالاء
وكان القباء منك لما ضم
من الطهر مسجد بقباء
أنت إلتكن نبيافا فاتك
إلا خلائق الأنبياء
رأفة في شهامة وعفاف
في اقتدار وسطوة في حياء
وجمال ممنطق بجلال
وكمال متوجج بهاء
وإذا ما الملوك خافت سهام الذ
ذم زرت عليك درع الثناء
اعجب الناس منك إنك في الحر
ب شهاب الكتيبة الشهباء
وكان السيوف من عزمك الما
ضي أفادت ما عندها من مضاء
ولعمري لو استطاع فذاك ال
قوم بالامهات والآباء (٣٣)

وله فيه شعر
لله عزمك أي سيف وغي
طبعنت مضارب به على القهر
ما زفت الحرب العوان به
الانجلت عن معقل بكر

هل وجه نور الدين غير سنى
صدع الدجى عن خجلة البدر
ملك مهابة طليعته
أبداً أمام جيوشه تسري
كم فل كيدهم بصاعة
شغلت قلوبهم عن الكفر
تركت حصونهم سجونهم
فالقوم قبل الأسر في أسر
عصم العواصم فهي ضاحكة
تجلوا والظبي ثغراً على ثغر
فإذا سرايا خيله قفلت
نهضت سرايا الخوف والذعر
ورمى القلاع بمثل جندها
حتى استكان الصخر بالصخر
ياسائلي عن نهج سيرته
هل غير مفرق هامه الفجر
عال حقيق من تأمله
أن يجي العميرين بالذكر
وشهامة في الله خالصه
عقدت عليه تائم الأجر
وندى يدماضر واردة
أن لا يبيت مجاور البحر
هذا المخيم في ذرى حلب
وثناؤه أبداً على ظهر

وله فيه وقد وصف دارة:
دار تغار الشمس في أفق
من حسنهما والشمس مغيار

يزأر فيها ضيغم ماله
غير سيبوف الهند أظفار
تسي وتضحى وهو جاراها
والله ذو العرش له جبار
لسيفه الباتر من دهره الـ
جائر ما يهوى وما يختار
قدم الأسفار من ذكره
نشر له في الأرض إسفار
حمد يضيوع الجو من طيبه
كانها راوي عطره
إن خطرة في قلبه خطرت
أجباها ماض وخطار
وإن دعا دعيه يوم الوغى
سيوفه لبتته أقدار
وإنما صار منه مرسل
له من التأيد أنصار
ياملك الدنيا ولكنها
دنيا لها في الدين آثار
ويجاو أدام الآله
غير قضاء الحمم دمضار

وله فيه أيضا:

تدارك ملّة العربي ذبا
إلى أن عده من معه
وحل ذرى العواصم وهي نهبى
فأجلى الشرك حتى ليس ضد
ثنى يده عن الدنيا عفا
ومال بها عن الأموال زهد

رأى حط المكوس عن الرعايا
فأهدر قبل ما أنشاه بعد
ومسدها رواق العدل شرعا
وقد طوى الرواق ومن يمد
وبات وعند باب العرش منها
للدولته دعاء لا يرده

وله فيه:

ملك أشبه الملائك فضلا
وشبيهه بالملك الأمر جنده .

عم إحسانه فأصبح يتلى
شكره في السورى ويدرس حمده
فسقى الله ذكره أينما حل
ولا فاته من النصر فده

وله فيه:

ضحكت تباشير الصباح كأنها
قسمات نور الدين خير الناس
المشتري العقبى بأنفس قيمة
والبائع الدينيا بغير مكاس
وسرى دعاء الخلق يجرس نفسه
إن الدعاء يعد في الحراس
راض الخطوب الصم بعد جماحها
وألان من قلب الزمان القاسي
وأعاد نور الحق في مشكاته
وأقام وزن الحق بالقسطاس

هيهات يطمع في محلك طامع
طال البناء على يمين الهادم
كلفت همتك السمور فحلقت
فكأنها هي دعوة في ظالم
وأظن أن الناس لما لم يروا
عدلا كعدلك ارجفوا بالقائم

وله فيه:

قلت بقول الله لا تخافنا
مع حكم القرآن حكم القرآن
لأراقب النجوم ولا سائلا
مأفعول السعدان والنيران
بل غرت لاسلام حتى لقد
دان له من بالطواغيبت دان
رعت نواميس نواقيسها
بجلبلة الأذان وقوت الأذان
تمحو تصاوير الدمى عن يد
تبني المحاريب خلال المجان
هذا وكم أنشأت من منبر
فارسه فارس سحر البيان

من نال بالاخلاص ما نلته
كان من الله مكين المكان
يا شائما بالشام صوب الحيا
ودانيام من كل قاص ودان
هذي سجوف الملك مرفوعة
عن ملك أخباره كالعيان
أوضح سبيل العدل مفتنة
فللبرايا بالدعاء افتنان

ألغى حقوقها كلها باطل
إلى مال حط مال الضمان
عظفا ورفقا بالرعيا وان
أصبح تأديب ملوك الزمان
كم بين من نام على نشوة
وساهر في صهوة من حصان
في كل يوم بيتني سيفه
بيلدة بكر وأخرى عوان

وقرأت في ديوان أحمد بن منير الطرابلسي من قصائد يمدح بها نور
الدين رحمه الله تعالى:
يا محيي العدل ويا منشره
من بين أطباق البلى وقد همد
وركن الاسلام الذي وطده
طال وأرسى العز فيه ووطد
وشارع المعروف إذ لا سفه
يجنح للقول ولا تسمع يد
محوت ما أثبتته الجور مضى
عليه إخلاذ الليال مخلد
من كل مكاس يظل قاعدا
لما سوء المسلمين بالرصدا
كانت لأرجاس اليهود دولة
أزالها منك الهصورد واللبدا
الملك العادل لفظ طابق الـ
— معنى وفي الوصف معار مسترد
خير النعوت ماجرى الوصف على
صفحته جري النسيم في الومد

عدل جنيت اليوم حلوريعه
وسوف يجنى لك أحلى منه عند
لازال لاسلام منك عدة
تقيم منه كل زيغ وأود
الناس أنت والملوك شرط
تعديثا ويعدون نقد
مثلك لايسخوبه زمانه
ومثل ما أوتيت لم يؤت أحد

وله فيه

أيانورددين خبانوره
ومذشاع عدلك فيه اتقد
رآك الصليب صليب القناة
أمين العثمين العميد
تهم فتسلبه ما اقتنى
وتدئي (٣٥) فتشكله ما احتشد
زبتهم أمس عن صرخد
ففضوا كأن نعاما شرد
ويوم العريمة أقبلتهم
عراما يشلب منه الأسد
جنبت مليكهم في الصفاد
وعفوك عنه أعم الصفد
وقبل أزرهم في الرها
موازيق مزقن جرد الجرد
بقيت ترقع خرق الزما
ن قياما لابنائهم إن قعد
تثقف من زيغهم ما التوى
وتصلح من طبعه ما فسد

وله فيه:

أيامك الدنيا الحلال والذي
له الأرض دار البرية أعبد
ولست بدعوى لا يقوم دليلها
ولكنه الحق الذي ليس يحد
أخو الغزوات كالعقود تناسقت
تحل بأجساد الجياد وتعقد
لسان بذكر الله يكسونهاره
بهاء وجفن في السدجى ليس يرقد
وبذل وعدل أغرقا وتألقا
فلا الورد مثمود ولا الباب موصد
مرام سمائي وحزم مسدد
ورأي شهابي وعزم مؤيد

وله فيه:

أبدا تنكب عن ضلال سادرا
بثقوب زندق أوتدل على هدى
سدت الكهول من الملوك مراهقا
وشأوت شيهم البوازل أمرد
إن شيدوا صرحا أناف مناره
أويسجد واللكاس جد مسجدا
وإذا استهزتهم فلا يد معبد
هزته موعظة فعرف معبدا
قسما بشام الشام منك مهندا
أرضاه مشهورا وراع مقلدا
وتمسك الاسلام منك بعروة
الله أبرم جبلها فاستصحدا

أشفي فكنت شفاه من حادث
غاداه عارضه مردى بالردا
كنت الصباح لليله لمادجى
والغوث كف لظاه حين توقدا
لله يوم أطلعتك به النوى
يحتاب من مهج الأضا فر مجسدا
نشوان غنتك الظبى مفلولة
وأمال عطفك الوشيج مقصدا
في معرك ما قام بأسك دونه
إلا أقام المشركين وأقعدا
ولكم مكرّ قمت فيه معلما
أرضى إلهك والمسيح وأحمدا
يوم العريمة والخطيم وحارم وش
عاب باسوطا وهاب وصرخدا
لا يعدم الاشرار جندك أنه
ماسلّ فيهم حاكما إلا اعتدى
أهدتهم من بعد ما ملأ والملا
زجلا فهل كانت سيوفك مرقدا

طلعت نجوم الحق من آفاقها
وأعادها كزّ العصور كما بدا
وهوى الصليب وحربه وتبخر الا
سلام من بعد التآفف أغيدا
سبق المجلي للخطي فرفعه
نسق فتم وقد رفعت بالابتدا

وله فيه:

محمد المرعى على اسلافه
إن زاد في حسب الحسين نجار

تقف وطريق الصالحين مسابقا
لهم وتطلع خلفك الأبرار
نفس السيادة زهد مثلك في الذي
فيه تفاننت يعرب ونزار
ومتى ادعى ما تدعيه محكم
أوهى معاقدينه دينار
لله ما ظفرت به منك المنى
وتكنفت من ركنك الاستار
وسقى الغمام ثرى أيبك فانه
أزكى ثرى قطرت عليه قطار
شهدت نضارة عودك الغض الجنى
أن الذي استخلصت منه نضار
أما نهارك فهو ليل مجاهد
والليل من طول القيام نهار
فلذلك النصر العزيز أدلة
أنى اتجهت وللفتوح أمار

وله أيضا فيه رحمه الله تعالى:

رأينا الملوك وقد ساجلوا
كتمنوا منونا وغرّوا غرورا
أبى لك أن يدركوه أب
يزير فينسي الأسود الزئيرا
وجد إذا جديوم الرها
ن أبقى لتاليه جدا عثورا
تصب عصاك على من عصاك
يوم اعبوسا بها قمطيرا
لقد ألبس الشام هذا الإباء
لبوسا من الامن لينا وثيرا

تداركت أرمأقه والقلو
بنوافر أن يستجن الصدورا
أقمت جثا (٣٧) وكانت جثا
وشدت قصورا وكانت قبورا
وكم لك من غضبة للهدى
تميت الهوى وتجب الذكورا
إذا قطب اليأس كانت ردى
وإن ضحك العفو عادت نشورا
كملت فوقيت عين الكمال
تبيد السنين وتفني العصورا
وجاد لنا بك رب برا
ك للكفر ناراً وللدين نورا
إذا ما خدمت فمولى كريما
وأما عبت فعبداً أشكورا
امام المحارب برأ حصورا
وتحت الحروب هزب را هصورا
تبارك من شاده ذي الخلال
في ظله الملك طودا ووقورا
وألّف في معقد التاج من
سك سطوراً وسعيراً وعفوانميرا

وله فيه:

عقل الحق ألسن المدعينا
أنت خير الملوك دنيا ودينا
وأسد الانام قنولا وأفعلا
لأ ونفساً وأنيّة ويقينا
أنت أسنأهم أبا وإباء
وأمرأ حيا وأمرع حينا

بسط الرزق في البسيطة كفاك
فكلتا يديك تلفى يمينا
فيدتقسم النوائب عنا
ويدتقسم الرغائب فينا
أيها البحر لو تساجلك الأبحر
عامت في ساحليك سفينا
ولكان المحيط منها محاطا
مثل نون الهجاء أو خيل نونا
مشرع عامترعاً ومنامهنا
ورباعاً فيحاً وكفالبوننا
ومحيطاً مطلقاً ومالاً طليقاً
وابتهاجاً قصداً وحبلاً متيناً
بين ذب يميست عادية الشر
كوهب يحيى به المسلمونا
تسنى من الفتوح ألوفنا
أنت أعلى من أن تعد المئينا
كلما اجتبت ثوب نصر عزيز
من مرام أقبلت فتجامينا

صرف الله عنك صرف الزمان
أنت علمت صرفه أن يهونا
يابن من طبق البسيطة آثا
رأوعل لمنابذيه الاجونا (٣٨)
وغدت حصنه على شرح هذا الد
ين من شكة الأعداء حصونا
كم تعالي صهيلها في ربي الشا
م فأعلى خلف الخليج الرنيننا
كان صنو الرشيد أبفاك للحك
مة والبأس بعده المأمونا

سمع الله فيك دعوة سكن
أوطنوا من حماك حصنا حصينا
غرقتهم مدى الخطوب فأحيي
ت رفاتا من التراب دفيننا
البسوا عدلك المديح فاختا
لوا بنات في وشيه وبيننا
سهرت عينك الكلؤونا موا
تحت أكناف رعيها آميننا

قلت: فهذا أنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه مع أنها ماتا في سنة
ثمان وأربعين وخمسة قبل أن يفتح نور الدين دمشق، وبقي نور الدين
حيًا بعدهما إحدى وعشرين سنة يترقى كل عام في إزدياد من جهاد
واجتهاد، ولو كانا أدركا ذلك لأتيا في وصفه بعجائب المدائح، مع أنه
قد تولى ذلك غيرها ممن لم يبلغ شأوهما. ولأبي المجد المسلم بن الخضر
ابن قسيم الحموي من قصيدة فيه:

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه
كالرمح دل على القساوة لينه
وراء يقظته أن ناة مجرب
لله سطوة بأسه وسكونه
هذا الذي في الله صح جهاده
هذا الذي بالله صح يقينه
هذا الذي بخل الزمان بمثله
والمشمخ ر إلى العلى عرنيسته
ملك الورى ملك أغر متوج
لاغدره يخشى ولا تلوينه
إن حلّ فالشرف التليد أنيسه
أوسار فالظفر الطريف قرينه
فالدهر خاذل من أراد عناده
أبدا وجبار السماء معينه

ملك إذا تليت مآثر قوميه
كسد اللطيم وهجن النوار
ملا الفرنجة جور سيفك فيهم
فلهم على سيف المحيط جوار
يوم ما يزيرك جوف عرقة معلما
جوف له خلف الدروب أوار
وتجر في الأردن فضلة ذيليه
نقع بأكناف الأرنط مثار
إماتبيح حريم أنطاكية
أويفجأ الأداروم منك دمار
عفى جهادك رسم كل مخوفة
وصفت بصفوة عدلك الأكار
ومحا المظالم منك نظرة راحم
لله في خطراته أسرار
غضبان لاسلام مال عموده
فلنوره مما عراه نوار
وجدت كل يد تسور على يد
فأحلت ذاك السور وهو سوار
لم يبق ما كس مسلم شلقا^(٣٦) ولا
ساع لمظلمة ولا عشار
همدوا كما همدت ثمود وقادهم
بخسارهم مما أتوه قذار
العار في الدنيا شقوا بلباسه
ولباسهم يوم الحساب النار
كم سيرة أحييتها عامرية
رفعت لها في الخافقين منار
ونوافل صيرتهن لوازما
بأقلها تستعبد الأحرار

والدين يشهد أنه لمعزه
والشرك يعلم أنهم أنه لمهينه
ما زال يقسم أن يبدد شمله
والله يكبره أن تمين يمينه
فتح الرهاب بالأمس فانفتحت له
أبواب ملك لا يزال مصونته

وممدح نور الدين رحمه الله كثيرة، وذكر الحافظ أبو القاسم أنه كان قليل الابتهاج بالشعر، ومات حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسة، ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل إلى قبته بمدرسته بجوار الخواصين.

قلت : وقد جرب استجابة الدعاء عند قبره، وهذا ذكر طرف من مناقبه جملة ، ونحن بعد ذلك نأتي بأخباره وأخبار سلفه مفصلة مرتبة وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار إن شاء الله تعالى

فصل

أصل البيت الأتابكي هو قسيم الدولة آق سنقر جد نور الدين، فنذكره وما تم في أيامه، ثم نذكر ولده زنكي وما تم في أيامه، ثم نذكر ولده محمود بن زنكي، ثم نذكر ما بعده، وهي الدولة الصلاحية الأيوبية، وما تم في أيامها فنقول:

كان آق سنقر تركيا من أصحاب السلطان ركن الدين ملكشاه بن ألب أرسلان ، وهو عم دقاق بن تتش بن ألب أرسلان الذي كان سلطان دمشق، وقبره بقبة الطواويس بها، بنته والمشهد والدته، وكان السلطان ملكشاه من جملة الملوك السلجوقية المتغلين على البلاد بعد بني بويه بالعراق، فكان قسيم الدولة من أصحابه وأترابه ومن ربي معه في

صغره، واستمرّ في صحبته إلى حين كبره، فلما أفضت السلطنة بعد أبيه إليه جعله من أعيان أمرائه، وأخص أوليائه، واعتمد عليه في مهماته، وزاد قدره علوّاً إلى أن صار يتقيه مثل نظام الملك الوزير، مع تحكّمه على السلطان، وتمكّنه من المملكة، فأشار نظام الملك على السلطان أن يولي آق سنقر مدينة حلب وأعمالها، وأراد بذلك أن يبعده عن خدمة السلطان، ويتخذ عنده يداً بذلك.

قال ابن الاثير: ومن الدليل على علوّ مرتبته، تلقبه قسيم الدولة، وكانت الألقاب حيثنّد مصونة لا تعطى إلا لمستحقّيها. وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة سير السلطان ملكشاه الوزير فخر الدولة بن جهير، وكان زوج ابنة نظام الملك إلى الموصل، وسير معه جيشاً عظيماً، وجعل المقدّم على الجيش قسيم الدولة آق سنقر فسار نحو الموصل، ولقيهم في الطريق الأمير أرتق التركماني جدّ ملوك الحصن وماردين فإستصحبوه معهم، فحصروا الموصل، وحاربوا من بها وتسلموها، وسار صاحبها إلى السلطان فردّها عليه وكانت يومئذ لأحد أمراء بني عقيل، وهو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي، وكان ملكه من السندية بالعراق على نهر عيسى إلى منبج وما بينهما من البلاد الفراتية: كهيت والأنبار وغيرها، وملك الموصل وديار بكر والجزيرة بأسرها، وملك مدينة حلب، وكان عادلاً حسن السيرة، عظيم السياسة واتفق ان وقع بينه وبين صاحب أنطاكية خلاف، وذلك أن أنطاكية كان الروم قد استولوا عليها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ولم يزالوا بها إلى هذه السنة، ففتحها سليمان بن قتلش، وهو جدّ الملك غياث الدين كينخسرو، صاحب قونية وغيرها، وكان لشرف الدولة صاحب حلب على صاحب أنطاكية الرومي جزية يأخذها كل سنة، فانقطعت عنه بسبب أخذ سليمان البلاد، فأرسل شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الروم وتهدّده، فقال: أنا في طاعتك وهذا الفتح بسعادتك، والخطبة والسكة لك، ولست بكافر حتى أعطيك ما كنت تأخذه من الروم، فلج شرف الدولة

في طلب المال، فالتقى فقتل شرف الدولة وانهزم عسكره، وسار سليمان إلى حلب فحصرها، وسار إليها من دمشق تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان أخو السلطان ملكشاه، فالتقى عسكر تتش وسليمان، فقتل سليمان وانهزم عسكره، وملك تتش مدينة حلب دون القلعة، فأرسل أهل القلعة إلى ملكشاه ليسلموها إليه، وهو يومئذ بالرها، وكان سبب مسيره إليها أن ابن عطير النميري قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار، وسلمها إليهم فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها، فسار ملكشاه إليها في هذه السنة، فحصرها وفتحها وأقطعها الأمير بزان، فلما أتاه رسل أهل القلعة بحلب بالتسليم، سار إليهم فلما بلغ مسيره إلى أخيه تاج الدولة رحل عن حلب إلى دمشق، ووصل السلطان إلى حلب وبالقلعة سالم بن مالك بن بدران العقيلي وهو ابن عم شرف الدولة، فسلمها إلى السلطان بعد قتال وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جعبر، وكان قد ملكها في هذه السفارة، من صاحبها جعبر القشيري، وكان شيخاً كبيراً أعمى، فبقيت بيد سالم وأولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتي، فلما ملك السلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بن علي بن المقلد بن منقذ الكناني صاحب شيزر، ودخل في طاعته وسلم إليه اللاذقية وفامية وكفر طاب.

ثم إن نظام الملك أشار على السلطان بتسليم قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سنقر، فأقطعه الجميع، وبقيت بيده إلى أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة، كما سيأتي، وأقطع السلطان مدينة أنطاكية الأميرياغي سغان، ولما استقر قسيم الدولة في الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده، ثم إن السلطان استدعاه إلى العراق، فقدم إليه في تجمل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعظم محله عنده، ثم أمره بالعود إلى حلب، فعاد إليها، فلما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشاً إلى تكريت، فملكها وفي سنة إحدى وثمانين قصد قسيم

الدولة شيزر فنهبتها، وعاد إلى حلب، وفي سنة ثلاث وثمانين اجتمع قسيم الدولة وبزان وحصروا مدينة حمص فملكوها، ومضى ابن ملاعب إلى مصر، وفي سنة أربع وثمانين ملك قسيم الدولة حصن فامية من الشام، وملك الرحبة.

فصل

وفي عاشر رمضان سنة خمس وثمانين قتل الوزير نظام الدين أبو علي الحسن بن علي بن اسحاق، قتله صبي ديلمي بعد الافطار وقد تفرق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس، وحمل في محفة لنقرس كان به إلى خيمة الحرم، فلقية صبي ديلمي مستغيثاً به فقرّبه منه ليسمع شكواه فقتله، وقتل الصبي أيضاً فعدمت الدنيا واحداً الذي لم تر مثله، وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين أنه رأى النبي صلى الله وسلم في المنام، كأنه أتاه وأخذه من محفته فتبعه، فاستبشر نظام الدين بذلك وأظهر السرور به، وقال: هذا أبغي وإياه أطلب، وكان قد بلغ من الدنيا مبلغاً عظيماً لم ينله غيره، وكان عالماً فقيهاً ديناً خيراً متواضعاً عادلاً، يحب أهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم، وكان أقرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان يناظرهم في المحافل وبيحث عن غوامض المسائل لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مدّة، وأما صدقاته ووقوفه فلا حد عليها، ومدارسه في العالم مشهورة، لم تخل بلد من شيء منها حتى جزيرة ابن عمر التي هي في زاوية من الأرض لا يؤبه لها بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة، وهي التي تعرف الآن بمدرسة رضي الدين، وأعماله الحسنة وصنائه الجميلة مذكورة في التواريخ لم يسبقه من كان قبله ولا أدركه من كان بعده، وكان من جملة عباداته أنه لم يحدث إلا تَوْضُأً ولاتَوْضُأً إلا صلى، وكان يقرأ القرآن حفظاً، ويحافظ على أوقات الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة حتى أنه كان إذا غفل المؤذن أمره بالأذان، وإذا سمع الأذان

أمسك عن كل ما هو فيه، واشتغل باجابته، ثم بالصلاة، وكان قد وزر للسلطان عضد الدولة ألب أرسلان، والدملكشاه قبل أن يلي السلطنة في حياة عمه السلطان طغر لبيك أول الملوك السلجوقية ببغداد، فلما توفي طغر لبيك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه ألب أرسلان، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش الكثيرة، واستقرت السلطنة له وبقي معه إلى أن توفي، ثم وزر بعده لولده السلطان ملكشاه إلى أن قتل، وكان قد تحكم عليه، إلى حد لا يقدر السلطان على خلافه، لكثرة ممالিকে ومحبة العساكر له والأمراء، وميل العامة والخاصة إليه، لحسن سيرته وعدله، وهذا كلام أبي الحسن بن الأثير.

وقرأت في كتاب المعارف المتاخرة، ويسمى عنوان السير لمحمد بن عبد الملك بن ابراهيم الهمداني قال: وزر نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي للسلطان ألب أرسلان، ولولده السلطان ملكشاه أربعاً وثلاثين سنة، وقتل بالقرب من نهاوند وعمره ست وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوماً، اغتاله أحد الباطنية، وقد فرغ من فطوره، قال: وقيل إن السلطان ملكشاه لوف عليه من قتله لأنه سئم طول عمره، ومات بعده بشهر وخمسة أيام، وقد تقدّم نظام الملك في الدنيا التقدم العظيم، وأفضل على الخلق الافضال الكثير، وعم الناس بمعرفه، وبنى المدارس لأصحاب الشافعي ووقف عليهم الوقوف، وزاد في الحلم والدين على من تقدّمه من الوزراء، ولم يبلغ أحد منهم منزلته في جميع أموره، وعبر جيحون فوق على العامل بأنطاكية، بما يصرف على الملاحين، ومملك من الغلمان الأتراك الأوفاء، وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتاكهم من ممالিকে.

قلت: وأنشد أبو سعد السمعاني في ذيل تاريخ بغداد فقال: أنشدني عمي الإمام أبو القاسم أحمد بن منصور السمعاني غير مرة من لفظه للأمير شبل الدولة يعني مقاتل بن عطية بن مقاتل بن عطية البكري:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة
ثمينة صاغها الرحمن من شرف
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها
فردّها غيرة منه إلى الصدف

فصل

عاش السلطان ملكشاه بعد نظام الملك خمسة وثلاثون يوماً، ومات في منتصف شوال سنة خمس وثمانين وعمره ثمانية وثلاثون عاماً ونصف العام، وكانت مملكته قد اتسعت اتساعاً عظيماً، وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام، وأطاعه اليمن والحجاز، وكان يأخذ الخراج من ملك القسطنطينية، وأطاعه صاحب طراز، وأسيجباب وكاشغر وبلا سغون وغيرها من الممالك البعيدة، وملك سمرقند، وجميع ما وراء النهر، ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر به، وأحسن إليه واستصحبه معه إلى أصفهان، وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر الكثير، منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة، وحفر من الآبار، وبنى مدرسة عند قبر الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة، وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر ممالي الكوفة بمكان يعرف بالسبعي، وبنى مثلها بسمرقند أيضاً، قيل إنه خرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العذيب وبلغ السبعية بقرب الواقعة، وبنى هناك منارة ترك في أثنائها قرون الطبي وحوافر الحمر الوحشية التي اصطادها في طريقه، وبعد موته تنازع ابناه بركياروق ومحمد، ودامت الحروب بينهما نحو إثنتي عشرة سنة إلى أن توفي بركياروق، واستقرت السلطنة لمحمد، وفي مدة تلك الحروب ظهرت الفرنج بالساحل، وملكوا انطاكية أولاً، ثم غيرها من البلاد.

وكان السلطان قد اقطع أخاه تاج الدولة تتش مدينة دمشق وأعمالها وماجاورها، كطبرية والبيت المقدس، فلما توفي ملكشاه طمع تاج الدولة في السلطنة، فسار إلى حلب وبها قسيم الدولة فصالحه وراسل بوزان صاحب حران، وياغي سغان صاحب أنطاكية فساروا معه نحو الرحبة ونصيبين فأخذهما، وراسل صاحب الموصل إبراهيم بن قريش بن بدران يأمره بالخطبة له وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد فامتنع، فالتقى فهزم صاحب الموصل وقتل، وأخذت بلاده، وسار إلى ميفارقين، فملكها وسائر ديار بكر، ثم سار إلى أذربيجان، فالتقى هو وابن أخيه بركياروق بن ملكشاه، فانتقل قسيم الدولة وبوزان إلى بركياروق، فرجع تاج الدولة إلى الشام، ورجعا إلى بلادهما بأمر بركياروق ليمنعا تاج الدولة عن البلاد إن قصدها، فجمع تاج الدولة العساكر، وسار عن دمشق نحو حلب فاجتمع قسيم الدولة وبوزان، وأمدهما السلطان ركن الدين بركياروق بالأمير كربوقا، وهو الذي صار فيما بعد صاحب الموصل، فالتقوا بالقرب من تل السلطان بينه وبين حلب نحو من ستة فراسخ، فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيراً فقتله تاج الدولة صبراً ودخل بزان وكربوقا حلب فحصرهما تاج الدولة حتى فتحها، وأخذهما أسيرين، وأرسل إلى حران والرها وكانتا لبزان فامتنع من بهما من التسليم، فقتل بزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين، وأما كربوقا فإنه سجنه بـخمص، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة.

قال ابن الاثير: وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين عدل عام، ورخص شامل، وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قتل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمين، وقام أهل القرية يجرسونهم إلى أن يرحلوا، فأمنت الطريق وتحدث الركبان بحسن سيرته.

وفي المحرم من سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي الخليفة المقتدى بأمر الله فجأة، وهو أبو القاسم عبد الله بن الأمير محمد بن القائم بأمر الله، وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر، وأمه تركية، وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد، ويلقب محمد بن القائم والد المقتدى بالله الذخيرة، مات في حياة أبيه، فلم يل الخلافة.

ذكر أخبار زنكي

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على سبيل الاختصار، في فصول إلى حين وفاته، ثم نذكر أخبار نور الدين على ترتيب السنين.

لما قتل قسيم الدولة آق سنقر لم يخلف من الأولاد غير واحد، وهو عماد الدين زنكي والد نور الدين، وكان حينئذ صبياً له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي، وهو صبي أيضاً، ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوجه إلى حران وقد اجتمع معه عسكر صالح فملكها، ثم سار إلى نصيبين فملكها ثم إلى الموصل فملكها وأزال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي، وسار نحو ماردين فملكها وعظم شأنه، وهو في طاعة ركن الدولة بركياروق، فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر وأمرهم باحضار عماد الدين زنكي، وقال: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته فأحضره عنده، فأقطعهم الاقطاعات السنية، وجمعهم على عماد الدين زنكي واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها، فلم يزالوا معه، فتوجه بهم إلى آمد وصاحبها من أمراء التركمان، فاستنجد بمعين الدين

سقمان بن أرتق جد صاحب الحصن، فكسرهم قوام الدولة كربوقا، وهو أول مصاف حضره زنكي بعد قتل والده، ولم يزل كربوقا إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وملك بعده موسى التركماني، فلم تطل مدته وقتل، وملك الموصل شمس الدولة جكرمش وهو أيضاً من مماليك السلطان ملكشاه، فأخذ زنكي فقربه وأبىه، واتخذ ولدًا لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمسائة، فلا جرم أن زنكي رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كوري، فأكرمه وقدمه وأقطعه أقطاعاً كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذ صهراً.

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولي سقاوه، فاتصل به عماد الدين زنكي، وقد كبر وظهرت عليه أمارات السعادة والشهامة، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد، وكان جاولي قد عبر إلى الشام ليملكه من الملك فخر الدين رضوان، فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مودود، وأقطعه إياها سنة اثنتين وخمسمائة، فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه زنكي وغيره من الأمراء، فلما استقر مودود بالموصل واتصل به زنكي أكرمه وشهد معه حروبه، فسار مودود إلى الغزاة بالشام ففتح في طريقه قلاعاً لهم من شبختان كانت للفرنج، وقتل من كان بها منهم، ثم سار إلى الرها فحصرها، ولم يفتحها، فرحل وعبر الفرات فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوماً، ثم سار إلى معرة النعمان فحصرها، ثم حضر عنده أتابك طغتكين صاحب دمشق فساروا إلى طبرية وحاصروها وقتلوا قتالاً شديداً، وظهر من أتابك زنكي شجاعة لم يسمع بمثله، منها أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهو يظن أنهم يتبعونه فتخلفوا عنه، وتقدم وحده وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج، فدخلوا البلد، ووصل ربحه إلى الباب فأثر فيه، وقتلهم عليه وبقي ينتظر وصول من كان معه، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً، فعجب الناس من إقدامه أولاً، ومن سلامته آخراً، ثم التقى

الجمعان فهزم الفرنج لعنهم الله ووصلوا الى مضيق دون طبرية، فاجتمعوا به وجاءتهم نجدة فأذن الأمير مودود للعسكر في الرجوع إلى بلادهم، والاجتماع إليه في الربيع، فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها فخرج يوماً يصلي الجمعة فلما صلاها وخرج من صحن الجامع ويده بيد طغتكين وثب عليه انسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات، وكان صائماً فحمل إلى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل، وقال : لا لقيت الله إلا صائماً فإنني ميت لا محالة سواء أفطرت أو صمت ، وتوفي في بقية يومه رحمه الله، فقيل إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه، وقيل بل خافه طغتكين، فوضع عليه من يقتله، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة.

قال ابن الاثير: حدثني والدي رحمه الله قال: كتب ملك الفرنج إلى طغتكين: «إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها». فلما قتل الأمير مودود أقطع السلطان بلاد الموصل وغيرها للأمير جيوش بك، وسير معه ولده الملك مسعود إلى الموصل، ثم أنه جهز آق سنقر البرسقي في العساكر وسيره إلى قتال الفرنج ، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه، فساروا وفيهم عماد الدين زنكي، وكان يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي، فسار البرسقي إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس فحصرها، وقتل من بها من الفرنج والأرمن ، وضاعت الميرة عن العسكر، فرحل إلى سميساط وهي أيضاً للفرنج فأخرب بلدها وبلد سروج، وعاد إلى بلد شبختان فأخرب ما فيه من الفرنج، وأبلى زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسناً، ثم عادت العساكر تتحدث بما فعله، وعاد البرسقي إلى بغداد وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربع وعشرين وخمسةائة، وقد علا قدره وظهر اسمه.